أ. مزي عبد القادر	إعادة إحكام سؤال النهضة: مُساءلة المقدس الديني و السياسي	كلية الآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم الفلسفة - جامعة تلمسان -

الملخص:
إن علينا إعادة بناء النهضة مشروع يتطلب كثيرا من الجهود المتنوعة المجالات. غير أن الشروع في أي أداء حضاري لا يكتب له الاستمرارية إلا وفق إستراتيجية معرفية قوامها النقد الإبستمولوجي الكاشف عن آليات تشكل الوعي و الوعي الزائف عبر التاريخ. وهو ما يتطلب التفكير في منظومتنا المعرفية بإعادة إحكام التساؤل المنهجي حول قضايا الموضوع و صلاحية المنهج وحدوده...

يعتبر التاريخ ثمرة الحضارة(1) وفي الوقت ذاته هو وحده الكفيل بأن يعلمنا دروسا حول ما يسمى بالحضارة، لذلك لا يستطيع أحدٌ أن "يتحدث عن الحضارة حديثا معقولا إلا إذا عرف ماهية التاريخ ماهية معقولة أيضا."(2)

كما يشكل الإنسان العنصر الفاعل في التاريخ بالإضافة إلى عنصري الزمان والمكان التاريخيين، لكن الحديث عن الإنسان بالمعنى الحضاري دفع غالبية المفكرين في الغرب. خاصة بعض علماء الأنتربولوجيا في حديثهم عن الإنسان العاري. إلى تقسيم ثنائي شهيربين المتوحش/البدائي و المتحضر. وكأن الأمر على شكل بنية خِلقية، وهو ما أدى إلى تطور الدراسات في مجال علم السلالات البشرية /**l'ethnologie** منذ ستينيات القرن المنصرم. بل يمكن القول منذ أن اعتبر المفكرون اليونان كهيرودوت(484. 425 ق م/ **Hérodote**) غيرَهم من المهاجرين الآسيويين كالمنغول و الوندال برابرة همج يجب منعهم من الاختلاط بالسكان المحليين، وكذا في مراحل القرون الوسطى حينما كان يشار إلى العرب المسلمين. الذين طردت أمهم هاجر إلى الصحراء مع ابنها إسماعيل(3). بتسمية خاصة اقترنت دلاليا لدى العامة من سكان أوربا إلى يوم الناس هذا بالهمجية و السلب والنهب؛ حيث لُقِّبوا بالسراسنة/**les sarrazins**(4) أو الشعب الهائج(5) أو المور

maures(6 بالتعبير الإسباني، واعتبروهم وباءً موجعا وليس أقل من كارثة لا يمكن تمييزهم عن البرابرة الآخرين .

إن هذه النظرة الدونية للآخرين من بني البشر نابعة عند بعض الأجناس من مرض الشعور بالتفوق العرقي الذي كان في الكثير من الحالات سببا وراء الحروب والصراعات وتجارة الرق وغيرذلك من الأنماط السلوكية التي لا يمكن أن يوصف أصحابها بأقل من البربرية هم كذلك.

لكن بينما نصف نحن الآخرين بالبربرية هم كذلك يفعلون، والكل تتحكم فيه خلفيته الثقافية أوالدينية أوالعرقية. وبين البَيْنَين يبقى مفهوم الحضارة في أغلب الأحايين بعيدا عنا وعنهم إلا في بعض اللحظات الاستثنائية التاريخية التي نفتخربها نحن ويعترف لنا بها هم على الأقل في مستوى بعض الأفكارلدى بعض المستشرقين من علماء الغرب أو العكس.

لسنا في لحظة الحضارة في وقتنا الراهن، هذا ما يجب أن نعترف به نحن على الأقل اتجاه أنفسنا لعلنا نستطيع إعادة تشكيل وعينا التاريخي المتشتت، بدل أن نكتفي بتمجيد بطولات الماضي أوتعطيل طاقاتنا وقدراتنا البشرية بالاكتفاء بترقب المهدي المنتظر المُخلِّص الذي أُوتِيَ العلم الذي لم يؤته سواه؛ علم الجفرو الجامعة(7).

إن صناعة الحضارة تقتضي قدرا هائلا من الجرأة وسعةً من الصبرومنهجية علمية كاشفة يمكن من خلالها القيام بعملية تشريح لتاريخنا وقراءته من خلال مناهج التاريخ الشمولي أوما يسمى اليوم بفلسفة التاريخ، ولا شك أن عملا كهذا يستحق تضحية على مستوى النخب التي أصبحت اليوم مجرد كائنات استهلاكية معرفيا تبلد لديها كل حس نقدي تجاوزي.

قد يعتقد البعض أن العمل يتطلب منا مجرد الوقوف على بعض الحوادث التاريخية الكبرى التي ساهمت بشكل أو بآخر في إيصالنا اليوم إلى ما نحن عليه، لكنني أعتقد أن

العملية تتطلب حفرا معرفيا يشمل بالإضافة إلى تاريخ الأحداث تاريخ تشكل الإيديولوجيا المحركة لهذه الأحداث: أي الإحاطة معرفةً بكل الظروف والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الفكرية التي تولدت عنها الوقائع التي تمكن المؤرخون القدامى القول فيها بشهاداتهم وحتى ما لم يتمكن المؤرخون من قوله نتيجة الضغوطات الرسمية ممثلة في السلطة القائمة أوالضغوطات التي تمارسها الولاءات الفكرية والمذهبية للمؤرخين بتعبيركما يرى 'ابن خلدون'.

إن مدارسنا ليست قادرة حتى الآن على تجاوز عقدة المرآة التي تتطلب مكاشفة الذات وسحب الدرس التاريخي من تأثيرالمقدس الديني والسياسي اللذين تناوبا ممارسة السلطة على العقل النقدي(8) حسب المبررات التي يقنعنا بها كل طرف بدعوى فكرة المؤامرة على الثقافي مُتمثلا في المذهب العقدي والفقهي أحيانا وبدعوى وحدة الصف وتجنب الغلو في الخروف عن ولي الأمر أحيانا أخرى.

إن هذه المرة يجب على الحضارة الإسلامية أن تكون في مستوى يؤهلها لتكون حضارة الإنسانية بما تقدمه من رؤية يجب أن تتخلص من الأفكار التي تكلست في أذهان المسلمين الذين ظلوا طيلة القرون الماضية يخشون المبادرة التاريخية. فمرض الخوف هذا مرده إلى الأنظمة المعرفية التي تشكلت في مراحل تاريخية وظروف معينة لكنها بالرغم من ذلك تأبَّدت بإغلاق باب الاجتهاد؛ حيث أنه في "أوائل القرن العاشر شعر العلماء في مختلف المدارس، أنهم وصلوا إلى نقطة تم فيها بحث جميع المسائل الأساسية وتم البث فيها بصورة نهائية، وهذا ما سمي 'بإقفال باب الاجتهاد' الذي وجب عنه لزوم إتباع الثقاة المعترف بهم في كل مدرسة. وكان ذلك بداية فترة كبيرة من التحجر العقائدي."(9)

إن فكرة الخوف من الخطر على الهوية والحقيقة الدينية هي التي كانت تحرك مثل هذه المواقف تحت ضغط ظروف عامة صاحبها تضاؤل المستوى المعرفي أو الأداء الحضاري

عموما، فكالحشرات يلجأ الإنسان إلى الانكماش عند استشعار الخطر وعدم توفر قدرة المواجهة و الصمود.

إن مرحلة غلق باب الاجتهاد عند أهل السنة ترافقت مع ازدياد خطر الشيعة الإسماعيلية ودعوتهم السرية لقلب الحكم و الثورة، بينما ظل الفكر الشيعي ينتج آليات المقاومة لأنه منذ الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر عام 329 هجرية انتهج الشيعة فكرة "التقية التي كانت تأمر الشيعة بأن تعلن شيئا وتضمر شيئا آخر و ذلك لحماية الآراء الحديثة التي كانت بحاجة إلى الكتمان سواء لنشرها أو لحمايتها من السلطة الحاكمة. ولكي يكون لهذه الآراء رصيد ديني لا يجوز التشكيك فيها نسبت رواة الشيعة تلك الروايات الغريبة إلى أئمة الشيعة ولا سيما إلى الإمامين الباقر و الصادق"(10) فأصبح بالتالي تلقي العلم وتلقينه مجال الخاصة ومنه ما هو لخاصة الخاصة (الأئمة المعصومون)، وربما ذلك ما يفسر عدم غلق باب الاجتهاد لدى طوائف الشيعة عموما لأنه بقي منيعا عن ضغط العامة و السلطة الحاكمة بالتأسيس لمفهوم الولاية الدينية أو ولاية الفقيه.

يمكننا في عجالة الوقوف على أهم الأحداث التاريخية و السياسية الكبرى في مسيرة المشروع الحضاري الإسلامي وهي شواهد تاريخية على ما حدث على كل حال، لكنها تستدعي منا قراءة غير تلك القراءة الكلاسيكية التي اكتفت بذكر عوارض الأحداث ونقلها وفق منهج الرواية الذي تميز به الفكر الإسلامي منذ ظهوره (نقل القرآن و الحديث وتاريخ الرسل و الملوك رواية) دونما تمحيص ونقد. ويبقى هدفنا من هذا العمل هو الإجابة عن انشغال العامة و الخاصة و خاصة الخاصة من المسلمين: كيف يمكن للأمة اليوم أن تعود إلى خدمة الإنسانية بعطائها الحضاري المتميز؟

*** الخلفاء الراشدون (11 .40هـ/ 632 .661 م):**

.البيعة الأولى: هي بداية مرحلة قيام الخلافة أثناء اجتماع الأنصار في 'سقيفة بني ساعدة'، ظانين أنهم أحق الناس بذلك الأمر من غيرهم. فرشحوا 'سعد بن عبادة الخزرجي'، وموقف 'أبي بكر الصديق' و'عمر بن الخطاب' الذي حسم الأمر ببيعة 'أبي بكر الصديق' الخليفة الأول.

.حركة الردة: بدأت حركة الردة بالقبائل التي منعت الزكاة كـ'عبس' و'ذبيان' و'غطفان' وغيرها، حيث أرسلت وفدًا إلى 'المدينة'، يعرض على 'أبي بكر الصديق' مطالبهم، وأنهم لم يرفضوا الإسلام، ولكنهم يرفضون دفع الزكاة لحكومة 'المدينة'؛ لأنها في ظنهم معرَّة، ويعدُّونها إتاوة تدفع لأبي بكر.

.مقتل الخليفة الثاني عمر: في يوم الأربعاء الموافق 26 من شهر ذي الحجة سنة 23هـ بينما كان يسوِّي صفوف المسلمين في صلاة الفجر حيث تعرض لعدة طعنات بخنجر مسموم من طرف 'أبي لؤلؤة'، وهي حادثة أسست لمفهوم المؤامرة السياسية.

.مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان: في أواخر شهر ذي الحجة سنة (35هـ) وحصاره حصارا مؤلما منع فيه حتى الماء بعد التشهير بسلوك الولاة في عهده، خاصة الذين كانوا من أقاربه.

.موقعة الجمل: أثناء عودة أم المؤمنين 'عائشة' -رضي الله عنها- من أداء فريضة الحج، وسماعها بمقتل 'عثمان'، فرجعت من الطريق إلى 'مكة'، وأعلنت سخطها على قتله، وأخذت تردد 'قُتل والله عثمان مظلومًا لأطلبن بدمه'، ثم وافاها في 'مكة' 'طلحة' و'الزبير' -رضي الله عنهما- و'بنو أمية'، وكل من أغضبه مقتل 'عثمان'، وراحوا يتباحثون في الأمر، وهداهم تفكيرهم إلى تجهيز جيش للأخذ بالثأر من قتلة 'عثمان' والسير به إلى 'البصرة'، باعتبارها أقرب بلد إليهم من البلاد التي اشترك أهلها في

الثورة على 'عثمان' وقتله، وكان هذا اجتهادًا منهم أقام حكومة أخرى غير حكومة الإمام، المبايع شرعًا من الأمة، والمنوط به وحده إقامة الحدود والقصاص من القتلة.

.**معركة صفين:** بعد معركة 'الجمل' توجه 'علي ابن أبي طالب' بجيش يبلغ عدده نحو مائة ألف إلى 'صفين'، واستعد 'معاوية' لمقابلته بجيش يقاربه في العدد، ودارت بينهما معركة شرسة في شهر صفر سنة (37هـ) قُتِل فيها من الجانبين ما دفع بالمؤرخين إلى تهويل العدد، ولما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين تنادوا يطلبون وقف القتال. فجعل أهل 'العراق' (جيش 'علي') يصيحون في أهل الشام (جيش 'معاوية') قائلين: من لثغور 'العراق' إن فني أهل 'العراق'. ويرد الآخرون: من لثغور الشام إن فني أهل الشام. ومن هنا جاءت فكرة التحكيم التي رفضها 'الخوارج' شكلا ومضمونا.

اتخذ علي بن أبي طالب من 'الكوفة' عاصمة لدولته منذ أن خرج من 'المدينة' إلى 'البصرة' وبعد معركة 'الجمل'، وظل يحكم منها إلى أن لقي الله، وعهد بإدارة بقية أجزاء دولته إلى أقرب الناس إليه، وأخلصهم له، فجعل 'عبد الله بن عباس' واليًا على 'البصرة' وأخاه 'عبيد الله بن عباس' واليًا على 'اليمن'، وأخاهما الثالث 'قثم بن عباس' على 'مكة' و'الطائف'، وعزل 'قيس بن سعد' عن 'مصر'، وولّى مكانه 'محمد بن أبي بكر الصديق'.

.**الاتفاق بين علي ومعاوية:** بعد انقسام جبهة 'علي' إلى 'شيعة' و'خوارج' ازداد موقفه ضعفًا؛ لأن صراعه مع 'الخوارج' كبده متاعب جسيمة، وفي الوقت نفسه كان موقف 'معاوية' يزداد قوة، وبخاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على 'مصر' سنة (38هـ)، بجيش قاده فاتحها الأول 'عمرو بن العاص'، ونشر قوات له في أطراف 'العراق'، وضم 'اليمن' إليه، وأصبحت دولته تتسع بمرور الزمن، في الوقت الذي تضيق فيه دولة 'علي'.

انتهى الأمر بأن جرت بين علي ومعاوية مفاوضات طويلة، اتفقا على وضع الحرب بينهما وتكون لعلي 'العراق' وبلاد فارس ولمعاوية الشام فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة.. وتراضيا على ذلك. وهكذا أجبرت الظروف 'علي بن أبي طالب' أن يصالح 'معاوية'، ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية تقريبًا، يحكمها حكمًا مستقلا. وهو الذي رفض في بادئ الأمر إبقاءه واليًا على الشام وحدها يأتمر بأمره.

يجب أن نلاحظ أن هذه المرحلة شهدت ظهور أحد أهم الفرق السياسية الدينية في التاريخ الإسلامي متمثلة في الخوارج التي حكمت لأول في التاريخ الإسلامي على كفر مرتكب الكبيرة، على أنه يجب الإشارة إلى أن مرتكب الكبيرة عندهم هو من خرج عن الإمام كـ 'عائشة' و'معاوية' أو من لجأ إلى التحكيم مديرا ظهره لحاكمية الله إشارة إلى. 'علي'، لتليها بعد ذلك ظاهرة التشيع لآل البيت، ثم تحول الصراع بالسيف إلى صراع كلامي عقدي من خلال ما انجر عن الفرقتين السابقتين من طوائف وردود الفعل المتتابعة التي أدت إلى ظهور 'المعتزلة' لحماية العقيدة من تطرف الباطنية من الشيعة كالحشاشين والقرامطة والروافض وغيرهم من المغالين الخوارج كالأزارقة والحرورية والنجدات وفرق أخرى لا يتسع المجال للخوض في تفاصيل عقائدها كالراوندية أتباع عبد الله الراوندى الذين ألَّهُو 'أبا جعفر المنصو'ربقولهم له: أنت هوَّ هوَّ(أي أنت هو الله) والمزدكية الذي يُنسب إلى مزدك بن نامدان المولود في نيسابور سنة (487 م)، وكلها حركات زعزعت الاستقرار في المرحلتين الأموية والعباسية وكانت أحد أسباب زوال ملكهما. ثم بعد ذلك تبلور الفكر الأشعري كرد على غلو المعتزلة في استعمال العقل.

لذلك يمكن النظر إلى ما قام به الأشعري وشرَّاحُه من بعده كالغزالي كنوع من إحكام السياج على وظيفة العقل داخل أطر لفهم النص تشكلت خلال مرحلة تاريخية محددة. بل لقد وصل الأمر إلى اعتبار أصحاب الرأي الفقهي. لا الكلامي. ضالين

مُضلين، فاقرأ قول أحدهم إن شئت: "وأصحاب الرأي وهم مبتدعة ضلال أعداء للسنة والأثر يبطلون الحديث ويردون على الرسول عليه الصلاة والسلام ويتخذون أبا حنيفة ومن قالب قوله إماما ويدينون بدينهم ونصف ضلالة أبين ممن قال بهذا وترك قول الرسول وأصحابه واتبع قول أبي حنيفة وأصحابه فكفى بهذا غيا مرديا وطغيانا والولاية بدعة والبراءة بدعة وهم الذين نتولى فلانا ونتبرأ من فلان. وهذا القول بدعة فاحذروه، فمن قال بشيء من هذه الأقاويل أورآها أوصوبها أورضيها أو أحبها فقد خالف السنة وخرج من الجماعة وترك الأثر وقال بالخلاف ودخل في البدعة وزال عن الطريق وما توفيقي إلا بالله."(11) ومعنى هذا القول أنه ليس بصحيح العقيدة والدين من لم يكن حنبليا.

إن هذا التباين في المواقف السياسية انعكس على المستوى العقدي، حيث تجلى في النقاشات الشهيرة حول مسائل الذات الإلهية والأسماء والصفات وقضية خلق القرآن التي تسببت للكثيرمن العلماء وأصحاب السلطان في أزمة كما وقع لأحمد بن حنبل في محنته الشهيرة.

أما ما حصل بعد مرحلة التأسيس للفكرهذه فليس سوى شروحا وأحيانا شروح على الشروح، فلم تستطع من بعد ذلك جهود المجتهدين كابن رشد فكاك العقل بالرغم من ما رآه من اتصال بين الحكمة والشريعة، ولا ابن خلدون استطاع أن يتحرر من أشعريته بالرغم من منهجه الواقعي في دراسة العمران والتاريخ البشريين. وإلا كيف نفسر انتشار المتون الشعرية التي ألفت لغرض تعليم تلقيني يرفض كل مساءلة ونقد، فظهربذلك التميز الطائفي المرتكزعلى المذاهب والفرقة.

* **نماذج الحكم الإسلامي بعد مرحلة الخلافة:** (بعد القرن السابع) سيطرت ثلاثة نماذج من حكم العرب المسلمين وهم: الأمويون والعباسيون والأدارسة بالمغرب الإسلامي، ونماذج أخرى غيرعربية منهم: السلاجقة والمماليك بمصروكل دويلات المغرب

الإسلامي كالمرابطين والموحدين والزيانيين والحفصيين والمرينيين وصولا إلى عهد العثمانيين الأتراك.

1.الدولة الأموية(132.40هـ/ 661.750م): باستثناء حالة إسبانيا حيث استمرت إلى 1492م، وقد عرفت اضطرابات بسبب موقف الخوارج والمواقف غير المعلنة للشيعة.

2.الدولة العباسية (132.656 هـ/ 750.1258م): قامت على أساس دعوة شيعية لكنها لم تستطع المضي في ذلك مما أثار ثائرة المغالين من الشيعة كالحشاشين والقرامطة وتمردهم على مركز الخلافة.

3.عصر نفوذ السلاجقة (590-447هـ/ 1194-1055م): السلاجقة الأتراك نسبة إلى سلجوق بن تقاق، حيث استطاع حفيده طغرلبك محمد بن ميكائيل هزيمة الغزنويين والسيطرة على بلاد خراسان سنة 431 هـ/1040م. بلبك وصلت سطوتهم إلى بغداد التي لم تنزع من تحت قبضتهم إلا عام 590هـ/ 1194م في عهد الناصر لدين الله. وازدادت عصبيتهم نظرا للتهميش الذي عرفوه طيلة حكم من سبقهم إلى الملك بدار الإسلام التي أصبحوا جزءا منها (ظهور مفهوم الشعوبية والتمييز على أساس الانتماء العرقي).

4.سقوط الخلافة الفاطمية ودخول مصر تحت لواء الخلافة العباسية(567هـ= 1171م):

5.سقوط بغداد في يد المغول وانهيار الخلافة العباسية في العراق (656هـ= 1258م): وهو نهاية لنفوذ السلطة المركزية (الدولة الأمة) وبداية للتشرذم وعهد الدويلات المستقلة والانقلابات بدعوى إصلاح ما فسد.

6.الأدارسة بفاس وتلمسان (172هـ/ 788م) إلى غاية (300هـ/ 816م): وهو ما سمح لبقايا أهل البيت. التي احتضنها بربر المغرب الإسلامي. من تشكيل دولة،

لكن بعيدا عن أنظار السلطة المركزية العباسية التي يتحكم في زمامها من اضطهدهم من أبناء عمومتهم، مع العلم أن إدريس بن عبد لله الأكبر مات غدرا على يد 'الشمَّاخ' بأمر من 'الرشيد'.

7. **المرابطون:**(1055هـ .1147م)/ قبائل صنهاجة/ المذهب سني مالكي.

8. **الموحدون:**(1151هـ.1258م) محمد بن تومرت.

9. **الزيانيون:**(بنو عبد الواد) بتأسيس من يغمراسن بن زيان بعد قيام الدولة بثلاث سنوات (627هـ/1230م).

10. **الحفصيون:** أسسوا دولتهم بالخروج على الموحدين (627هـ/1230م) نفس العام الذي ظهرت فيه الدولة الزيانية بتلمسان بزعامة أبي زكرياء عبد الواحد الحفصي، وسقطت على يد العثمانيين عام 893هـ/1488م.

11. **المرينيون:** من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر للميلاد بعد سقوط فاس من قبضة الموحدين عام 1248 وكذا تلمسان عام 1337م/ وأصولهم تنحدر من بربر زناتة.

12. **المملوكيون:** بمصر (خليط من الأتراك والكرد والروس والروم الذين جلبهم البويهيون) 1258 هـ/ 1512م.

13. **عودة الأتراك العثمانيون**/عثمان بن أرطغل (1512هـ/1920م سقوط الأستانة)، وترافق هذا مع دعوة جمال الدين الأفغاني توفي (1897م)، لمشروع الجامعة الإسلامية من خلال صحيفته العروة الوثقى التي صدرت سنة (1884م) وتبني السلطان عبد الحميد المتوفى سنة (1918م) لهذه الفكرة التي تعثرت بسبب التخلف و الجمود الفكري في ديار المسلمين.

15. **مرحلة الاستعمار** والتقسيم المفروض ثم تليها حركات للتحرر بتفاوت في حدة الثورة.

* مشروع الدولة الوطنية:

تمثل هذه المرحلة الحالة التي وجدت الدول الإسلامية و العربية خاصة نفسها علها بعد حين من الدهر تحت وطأة استعمار أجنبي عمل بمنهجية محكمة من خلال خبراء أنتربولوجيين على طمس الهوية و قيم هذه المجتمعات. ناهيك عن الإسراف في استغلال الخيرات المادية و القوى البشرية العاملة في ظروف لم تكن للصورة و الخبر قدرة على اختراق الحدود لإعلام الرأي العام بما كان يجري باسم شعارات الحضارة التي جاء بها فلاسفة التنوير في الغرب.

لقد كان الإرث ثقيلا على مستوى التاريخ و الجغرافيا، حيث أن عملية التجزئة أنتجت نوعا آخر من الهويات في مرحلة ما بعد الاستقلال هي الهوية الوطنية، التي باسمها تم وَأْد الأوطان فهي لحد اليوم تعيش اليتم التاريخي و الحضاري، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأن المواطن في أي دولة عربية اليوم هو أقرب إلى بريطانيا أو فرنسا من أي دولة عربية أخرى جارة أو شقيقة.

إن مشروع الدولة الوطنية أو الدولة القطرية أو الدولة الأمة كان دائما على حساب التكتلات الإقليمية حتى لا نقول أنه العائق أمام نشأة ما يسمى بالأمة الدولة المنشودة في مخيلة المسلم كشكل من أشكال حلم اليقظة على الأقل. بل أن هذا الحلم قد يغتصب أحيانا بدعوى الخيانة وعدم الولاء و غيرها من التهم التي يسهل إثباتها و الإدانة علها بمجرد ممارسة الحق في التفكير حتى لا نقول المطالبة بالحرية.

طبعا نحن لا نغفل هنا خصائص و طبائع الشعوب التي تنعكس بشكل أو بآخر على نمط تسيير شؤون الدولة، لكن المشكل أن هذه الخصائص عوض أن تساهم في التنوع الذي يؤدي إلى الغنى الثقافي و الحضاري أصبحت هويات متمايزة بل و متصارعة في أغلب الأحايين، في حين أن المجتمعات الأوربية ممثلة في الدول كمؤسسات رسمية

استطاعت، بالرغم من التناقضات والصراعات التاريخية التي أدت إلى نشوب أكبر حربين عالميتين، أن تنشئ تكتلا عالميا على المستويات الاقتصادية والعسكرية والقانونية ...الخ.

إن ما تشهده هذه الدول اليوم من حالات الانفلات الأمني وفي ظروف عولمة الثقافة يستدعي منها مراجعة آليات ممارسة السلطة والبحث عن صيغ جديدة وجدّية للاندماج الاقتصادي والثقافي والعسكري وإلا ستصبح عرضة لإعادة التقسيم وفق هويات مجهرية نشهد بداياتها في السودان، وقد تعم بقية المنطقة العربية تقسيمات على مستوى الطول والعرض متخذة مبدأ حقوق الأقلية العرقية والطائفية الدينية والثقافية كذريعة لمزيد من التمزيق والتفكك أوللتدخل الأجنبي المباشر وغير المباشر.

*** فشل الدولة القطرية ونماذج التكتلات:**

1) نموذج القومية العربية:

من خلال مشروع الجامعة العربية التي أُنشئت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والتي ضمت الدول العربية المستقلة الموقعة على ميثاق الجامعة. كان تطبيق الميثاق في (11 ماي سنة 1945م)، وبلغ عدد الدول الأعضاء بالجامعة (22) عضوًا، ولتحقيق التعاون بين أعضاء الجامعة قررت الدول السبع المؤسسة للجامعة توقيع اتفاقية الدفاع المشترك سنة (1950م)، وكذلك السوق العربية المشتركة سنة (1964م).

لقد تعرضت الجامعة لأزمات كبيرة؛ بسبب نقل مقرها إلى تونس سنة (1978م) بعد اتفاقية كامب ديفيد. واستمر هذا الأمر حتى عادت مرة أخرى إلى مقرها في القاهرة سنة (1990م)، كذلك أثر الغزو العراقي للكويت في الموقف العربي وما تلاه من أحداث على وضع العراق الراهن، مما أدى إلى انقسام العرب وعودتهم إلى لحظة تشبه لحظة القبيلة لكن بوعي مفتت.

إن تفاقم الأوضاع في البلاد العربية أدى إلى اختلال الموازين نتيجة التصدع في الوعي الجماهيري غير المنسجم مع رؤى الزعماء الرسميين، خاصة العلاقات مع أمريكا الوصية اليوم على السياسة العالمية من خلال تأثيرها المباشر ماديا وعسكريا على المنظمات الدولية كمجلس الأمن و الحلف الأطلسي بالرغم من محاولة بعض الدول الأوروبية الحفاظ على ماء الوجه و إنقاذ أوربا من الشيخوخة التاريخية، كما يعبر عن ذلك الأمريكيون، للإشارة إلى انتقال موازين القوى العالمية في مرحلة ما بعد الحربين العالميتين، فيمكن التسليم اليوم بمقولة: أن "العلاقات العربية الأمريكية في الوقت الحاضر معقدة و متشابكة و تنطوي على قدر كبير من التناقض و التضارب."(12)

لم يعد الإنسان العربي ينتظر لا القليل ولا الكثير من الجامعة العربية التي تقاسمتها الزعامات الوهمية على الرئاسة و المقر و المقترحات، ناهيك عن عدم قدرتها على جذب طاقات المفكرين لإحداث مراكز للدراسات، بل لقد نقلت الإنسان العربي من كونه حيوانا فصيحا إلى حيوان ليس له حتى حق الخروج إلى الشارع لِيَصيح.

يمكن القول أننا نعيش اليوم حالة من السُّبَات التاريخي بالرغم من أن كل شيء من حولنا يتحرك بسرعة مدهشة ووفق دقة متناهية في الصغر وفي الكبر، و ما لم يتم إعادة بعث القنوات الحضارية للحراك التاريخي سيفتح الباب أمام المغامرات و المغامرين و البقية تأتي، فيغبط البعض ويحزن الآخر كل بحسب مزاجه ورهانات مصالحه الطائفية كما حدث عند سقوط بغداد الأخير.

2) أمة تبحث عن مسوغات لوجودها الحضاري:

إن الكثير منا يتسرع في القول بأن للمسلمين ما يؤهلهم من مقومات (الدين واللغة والتاريخ والجغرافيا ووحدة المصير) ليكونوا حضارة تتماسك داخلها مجموعة كبيرة من الدول، لكن هذا الموقف المتسرع كثيرا ما اصطدم بإشكالية واقعية تتمثل في التساؤل

التالي:"هل الإسـلام كما تطبقه الدول و الأفراد في أيامنا كاف ليكون مسـتندا لتقارب الدول ذات الارتباطات المتباينة على أساسه...؟"(13)

إن محاولات ترميم الكيان الحضاري الإسـلامي من أجل أداء تاريخي أحسن وفشلهما في توحيد جهود المسلمين ممثلين في الدول الإسلامية الحديثة دليل على مدى التمزق الحضاري الذي نعيشه. فأول محاولة كانت بظهور فكرة المؤتمر العالمي الإسـلامي في مؤتمر مكة 1926، و ندوة المؤتمر الإسلامي (اجتماع القدس 1953)، والمؤتمر الإسلامي العام برئاسة أنور السادات 1955، ورابطة العالم الإسلامي التي أنشئت بقرار المؤتمر الإسلامي المنعقد بمكة عام 1962، والإتحاد الإسلامي العام الذي تأسس بباريس بعيدا عن قرارات الدول، و المنظمة الإسلامية الدولية 1970 التي هي عبارة عن اجتماع عام للمنظمات الإسلامية الإفريقية الآسيوية بباندونغ.

إن الجهود الرسـمية للدول الإسـلامية لم تستجب لهذه المطالب إلا في سنة 1969 في اجتماع الرباط بين 20 و25 من شهر سبتمبر، حيث كان ميلاد منظمة المؤتمر الإسـلامي الذي توالت مؤتمراته ليحصل على شبه إجماع (23 دولة من أصل 30) على بنود ميثاقه نهاية عام 1973 مع أن بعض الدول كالعراق اكتفت بتقديم طلبها كعضو مراقب.

رغم أن هذا المؤتمر أنشئ على شكل منظمة دولة قائمة على بنود و معاهدة دولية إلا أنه لم يتبنى مواقف تشـعر المجتمع الدولي بقدرته على التأثير في مجريات الأحداث العالمية، وبالأخص القضايا ذات الصلة المباشرة بمشـكلات المسلمين في نواحي العالم الأربع، بل اكتفى بالنحيب على غرار الجماهير المغلوبة على أمرها. وقد غلبت على بياناته عبارات الشجب و الإدانة اللفظية دون أن تتحول إلى إرادة فاعلة على الأرض، ببساطة يمكن القول بأن طموحات هذا المؤتمر لم تستطع أن تصمد أمام المطامع الوهمية للسياسات الخارجية للدول الإسلامية.

*** أي نموذج نهضوي لأية مرحلة تاريخية؟:**

أ)/ الفكر الديني التجديدي بين مشروع الأمة الدولة و الإرث الخرافي:

لهذه الأفكار جذور تعود إلى مرحلة مقاومة المحتل كما هو الشأن بالنسبة لمحمد بن علي السنوسي(1787.1859م) الذي جمع بين التصوف و منهج السلف و الثورة ضد التوسع الاستعماري ببلاد إفريقيا خاصة(14). لقد أضحى مفهوم العقيدة السنوسية نمطا ملائما للمسلم الحديث. ثم ما لبث أن حدث الانبعاث من جديد مع ظهور صيت جمال الدين الأفغاني(1838.1897م) و محمد عبده (1849. 1905م) و الكواكبي (1854.1902) ببلاد المشرق و ابن باديس (1889.1940م) ببلاد المغرب (الجزائر) (15). وقد استمرت هذه الأفكار بنوع من التعديل في الفكر المرجعي (ابن حنبل و ابن تيمية) وهو ما تجلى من خلال جهود رشيد رضا (1865.1935م) و حسن البنا (1906.1949م) بدعوة العودة إلى تجربة إنسان مجتمع السلف لإحداث النهضة المنشودة. لهذه الأفكار تأثيرات على مجمل الحركات التي تتبنى الإسلام كنموذج مثالي للحكم و التي تعمل من أجل إحداث الإقلاع الحضاري الذي تراه قاب قوسين أو أدنى من التحقيق، بعيون قد لا ترى بوضوح ضغوطات الواقع و إكراهات السياسة الدولية (نموذج جهة الإنقاذ بالجزائر و تعثر الإخوان بمصر و تجربة حماس فلسطين).

إن التركيز على هذه النماذج يجب ألا يغفلنا عن التجربة الإيرانية الحديثة ممثلة في ثورة الخميني على حكم الشاه و مشروع تصدير الثورة في العالم الإسلامي والتي أصبح ينظر إليها اليوم في ظل الظروف المعاصرة بمنظور الصراع العربي الفارسي أنها مجرد استمرار للمشروع الصفوي(16) الذي يهدد كيان العرب الذين هم مادة الإسلام وجوهر عقيدة السلف.

إلا أن هذه الدعوات لم تستطع لحد الآن أن تنتج خطابا سلفيا وحدويا يتجاوز الاختلافات الكبرى بين أكبر طوائف العالم الإسلامي اليوم (الشيعة و السنة و بقايا الفكر

الخارجي ممثلا في حركات التكفير و الجهاد المتنامية تحت وطأة الإخفاق السياسي للدول الإسلامية)، إذ يبدو أننا لم نخرج بعد من صفين أو واقعة النهروان(17).

إن ما زاد الأمور تعقيدا هو الجهل المتبادل الناتج عن عدم انتشار كتب الشيعة في التفسير ككتاب 'حقائق التأويل' للشريف الرضى (359 هـ.406 هـ) و الذي يتألف من حوالي عشرين جزء و'الدرر و الغرر' لأخيه 'الشريف المرتضى' و'التبيان في تفسير القرآن' للشيخ الأكبر'الطوسي' (385 هـ.460 هـ) و'غريب القرآن' لمحمد بن السائب الكلبي من أصحاب الإمام جعفر الصادق و'بحار الأنوار' للمجلسي (1037 هـ.1110هـ) و'مجمع البيان في تفسير القرآن' لـ'الطبرسي' و'الميزان في تفسير القرآن' لـ'الطباطبائي' وكتبهم في الحديث كـ'الكافي' لـ'الكليني' و'الاستبصار' و'تهذيب الأحكام' لـ'الطوسي' و'من لا يحضره الفقيه' لـ'الشيخ الصدوق' و غيرها من المراجع الأصول التي تجعل هذا الفكر يعمل تحت النور.

ب)/ أنصار التحديث و لعنة المناهج الغربية:

إن منشأ أفكار الحداثة في العالم العربي يرجع إلى جهود رفاعة رافع الطهطاوي أحد مشايخ الأزهر(1801.1873م) زمن حكم محمد علي باشا وتأثير الحملة الفرنسية على مصر(18)، وكذا خير الدين التونسي(1820.1890) ببلاد المغرب(19).

غير أن أفكار الحداثة و موضة ما بعد الحداثة تمتد في جذورها الأولى إلى عصر الأنوار أو الاستنارة(20) كما يحبذ البعض ترجمته إلى العربية؛ حيث سيطرت فكرة التقدم والحرية العقلانية على الخطاب الفلسفي في القرن الثامن عشر الذي بات يوشك بميلاد الإنسان الأوربي الحديث الذي يرفض الخرافة والأسطورة وكل خطابات الميتافيزيقا المتوارثة منذ اليونان مرورا بالممارسات الدينية مجسدة في الكنيسة ورجال الدين إبان العصور الوسطى. فبرز إلى الوجود قادة التنوير كـ'مونتسكيو'(1689.1755)

و'كوندورسيه'(1743. 1794) و الموسوعيون الكبار ك'روسو'(1712. 1778) و'فولتير'(1694. 1778) و'دلامبير'(1717. 1783).

وهكذا شهد العالم بعد جهود نقدية كبيرة لمناهج وطرق المعرفة الكلاسيكية ميلاد العلوم التجريبية المادية الطبيعيات وعلوم الهندسة، وانعكس ذلك كله على السياسة والاقتصاد حيث شهد العالم فلسفات تعبر على هذا المنحى التاريخي كالوضعية 'أوغست كونت' والبنيوية والماركسية والظواهرية. غير أنه بعد الثورة الصناعية ونتيجة لما آلت إليه وضعية الإنسان (الحربين العالميتين) وتهاوي قيمه الوجودية عاد البعض إلى طرح مسائل الحرية ورمزية الوجود الإنساني من جديد.

لقد اعتقد قلة من المثقفين في العالم الإسلامي أن هذه الأفكار يمكن أن تقود مجتمعاتهم إلى التقدم. في حين ظل البعض يناضل ضد انتشارها ويصف الداعين إليها بالخروج عن الملة والانسلاخ وفي أحسن الأحوال بالعَمالة الثقافية.

إن تخوف حُرّاس الثقافة من دعوة هؤلاء إنما كان بالتخوف مما قد يقود إليه الفكر الوضعي من وضع حقائق الدِّين الإسلامي بين قوسين؛ أي موضع الشك أو الرفض باعتبار كل خطاب ديني هو خطاب ميتافيزيقي البنية غير قادر على فهم نظام الطبيعة والظواهر وفْق مبدأ الحتمية (السبب المباشر) الذي لا يقبل إلا تفسير الأشياء بالأشياء أو الظواهر بالظواهر.

إن مشكلة الأفكار التي نجلبها من الخارج هي مواجهتها ورفضها من طرف الجسد الاجتماعي بالرغم من عدم اطلاعه عليها، وذلك لميل العامة من الناس إلى المألوف دائما وعدم اكتراثهم للجديد وتقبلهم له. فما بالك بما ينعت بأنه وافد ودخيل. لذلك فإن هذه الأفكار لا تجد سبيلا إلى الناس إلا إذا توفر حجم من الثقافة والعلم في هذه المجتمعات، وهو أمر آخر يحول دون عملية الإقلاع الحضاري، هذا ناهيك عن تكلس

أذهان ممن يوصفون بأنهم رواد للمعرفة، فهم العائق الكبير لأنهم يشكلون الواسطة التي يطّلع من خلالها العامة على منتجات الفكر و الحضارات الأخرى.

* **ما يجوز قوله:**

إن التيار المحافظ و تيار الحداثة كلاهما يعيش وَهْمَ الحقيقة الغائبة؛ فكل طرف يعتقد أنه أوتي وحده مفاتيح ما أُغْلِق فيجنح بذلك إلى رمي الآخر إن بالرجعية و التخلف أو بالانسلاخ و الضلال. و ما لم يعد كل من الفريقين النظر في كيفية تشكل المعرفة لديه وكيفية تحول الحدوس الفكرية إلى قناعات ثم إلى عقائد، ما لم يتم ذلك فإن التراوُح المكاني و الزماني سيكون مصير كل منهما، و هو ما ينعكس على مستوى تشكل الوعي لدى العامة و بالتالي تبقى السفن بدون مجاديف.

هذا يعني: أنه علينا إعادة التفكير في منظومتنا المعرفية بإعادة إحكام التساؤل المنهجي حول قضايا الموضوع قبل الكلام عن صلاحية المنهج و حدوده، و هو في ما أعتقد مشروعا إبستومولوجيا يستحق أن تنفق عليه العائدات البترولية التي لم يعرف المواطن العربي مصيرها بعد كما لم يعرف بأن سبب فقره كان هو غِنَاه.

الهوامش

(1) حسن مؤنس، الحضارة(دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب. الكويت، 1978، ص13.

(2) المرجع نفسه. ص14.

(3) جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ج1، تر: محمد رهير السمهوري و آخرون، تح: شاكر مصطفى. مراجعة: فؤاد زكريا. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب. الكويت، 1985، ص: 30.

(4) أصل الكلمة يوناني sarakenos وتعني ساكني الخيم. ويذكر بعض الباحثين أن الكلمة هي على مجارات لفظة شقي العربية(sharqi). أنظر: جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ج1، الإحالة (*1)، ص80.

(5) جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ج1، ص. ص:29. 30.

(6) المور les maures هو اسم أطلقه الأسبان على البشر الوافدين في الفتوحات وهم العرب و البربر الذين يتميزون بشعرهم الأسود الداكن. ويبدو أنه الاسم الذي أطلق على 'موريتانيا' بعد أن استوطنا هذا الجنس.

(7) كثيرة هي الدويلات في التاريخ الإسلامي التي قامت على دعوة 'المهدي المنتظر' أو الانتساب لأهل البيت لحشد الأتباع. وحديث المهدي روي في متون وبطرق مختلفة من طرف المحدثين في مصنفاتهم (الترمذي، أبو داوود، ابن ماجة، أحمد)، نكتفي نحن هنا بما رواه الإمام أحمد في مسنده، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري. رقم: 11238 . قال: "حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُوسَى قَالَ ثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ وَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ تُمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وَ ظُلْمًا فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وعَدْلًا."

أما "علم الجفر و الجامعة: قال أهل المعرفة بهذا العلم هو عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء و القدر المحتوى على كل ما كان وما يكون كليا وجزئيا. والجفر عبارة عن لوح القضاء الذي هو عقل الكل. و الجامعة لوح القدر الذي هو نفس الكل. وقد ادعى طائفة أن الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه وضع الحروف الثمانية و العشرين على طريق البسط الأعظم في جلد الجفر يستخرج منها بطرق مخصوصة و شرائط معينة ألفاظ مخصوصة تدل على ما في لوح القضاء و القدر. وهذا علم توارثه أهل البيت ومن ينتمي إليهم ويأخذ منهم من المشايخ الكاملين وكبار الأولياء، وكانوا يكتمونه عن غيرهم كل الكتمان. وقيل لا يفقه في هذا الكتاب حقيقة إلا المهدي المنتظر خروجه في آخر الزمان. وورد هذا في كتب الأنبياء السالفة كما نقل عن عيسى بن مريم عليهما الصلاة و السلام نحن معاشر الأنبياء نأتيكم بالتنزيل و أما التأويل فسيأتيكم به البارقليط الذي سيأتيكم بعدي."

أنظر: صديق بن حسن القنوجي. أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم. ج2. تح: عبد الجبار زكار. دار الكتب العلمية. بيروت، 1978. ص214. وأنظر: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي. كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413 هـ، ص591.

(8) إننا بحاجة إلى فهم جديد للإسلام. بنظر 'محمد أركون'. يخرج المسلمين من دغمائيتهم المنغلقة، فهو منظور يعتبر أن «الإسلام لا يكتمل أبدا، بل ينبغي إعادة تحديده وتعريفه داخل كل سياق اجتماعي. ثقافي وفي كل مرحلة تاريخية معينة.» أنظر: أركون (محمد)، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ط:02، 1996، تر: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي. المركز الثقافي العربي، بيروت. الدار البيضاء، ص: 20.

(9) جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ج1، ص27.

(10) موسى الموسوي، الشيعة والتصحيح (الصراع بين الشيعة والتشيع)، طبعة 1408هـ/1978م، ص15.

(11) محمد بن أبي يعلى أبو الحسين، طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت، تح: محمد حامد الفقي، ج1، ص35.

(12) أحمد عبد الرحيم مصطفى، الولايات المتحدة والمشرق العربي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، 1978، ص08.

(13) محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، 1978، ص119.

(14) محمد عمارة، العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، 1980، ص129.

(15) المرجع نفسه، ص. ص: 170. 171.

(16) نسبة إلى 'صفي الدين الأردبيلي'(1252. 1334م) عمل على توحيد إيران حيث التف الناس حول أتباعه وأبنائه من بعده لتفادي التمزق المحدق فتأسست الدولة الصفوية عام 1502م 'إسماعيل' الابن الثالث لـ'حيدر' حفيد الشيخ 'صفي'.

(17) واقعة النهروان (38هـ/658م)؛ واقعة شهدت مقتل أكثر الخوارج بعد أن حاججهم الإمام 'علي' في شرعية التحكيم ولم يتراجعوا عن موقفهم.

(18) محمد عمارة، العرب والتحدي، ص151.

(19) المرجع نفسه، ص 161.

(20) أنظر في شأن هذه التسمية الجديدة: حسن مؤنس، الحضارة (دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها)، ص 243.